غربة

كانت ساعة المصنع تشير إلى الخامسة، موعد انتهاء اليوم.. الازدحام شديد على ماكينة البصمة..

العاملون في مرح وسرور في هذا اليوم الوحيد من الشهر حيث استلام الراتب.. فتجد القفشات والضحكات تعلو وهم في سعادة، بينما باقي الأيام تجدهم في وجوم وإرهاق وتعب، أخذتُ ركنًا بعيدًا عن الزحام وأسندتُ ظهري إلى الجدار حتى يخف تكدس العاملين بينما عقلي قد تركني وذهب في مشوارٍ آخر.. مصروف البيت، طلبات الأولاد، الأدوية والعلاج..و.. تحسست بيدي المظروف القابع داخل جيب جاكيت البدلة الأيسر الداخلي، حتى أخرجني من حالتي تلك صوت زميلي منصور الذي يصغرني بأكثر من عشرين سنة

- يلا يا عم سعد، إنت هتنام عندك ولا إيه!

نظرت إلى منصور وأشرت إليه بأنني سأكون وراءه مباشرة.. لم تمضِ دقائق وكنا خارج البوابة الرئيسية في طريقنا إلى محطة المينى باص.. بادرني منصور بقوله:

- ياعم انت هتركب أتوبيس؟.. بر نفسك بقى شوية واركب تاكسي، انت معاك فلوس أد كده.

ثم أخذ يضحك عاليًا وهو يشير إلى تاكسي، وأنا أنظر إليه بغيظ وحنق خوفًا من أن يسمعه من يجلس على المحطة.. وضعت يدي على جيبي بطريقة لا شعورية وأنا أقول في نفسي:

- هو المرتب فيه إيه عشان أدفع تلاتين أربعين جنيه! مش البيت أولى برضه!.

لم تمضِ دقائق حتى توقف الباص أمامي، كان يحدوني الأمل أن أجد مقعدًا شاغرًا ولكن للأسف جميع الركاب كأنهم مواصلون إلى آخر الخط..

صوت التليفون المحمول يواصل رنينه.. كانت على الطرف الآخر زوجتي تطمئن على صرف الراتب وأنا أرد عليها بكلمات مبهمة خوفًا من أن يسمعني أحد، وكأنني أحمل في جيبي مليون جنيه.
وضعت التليفون في جيبي، وفجأة وجدته بجواري.. شاب في العشرين من العمر تظهر علي وجهه علامات التشرد والإجرام، يلتصق بي وأنا أبتعد عنه وهو يقول بصوت أجش:

- ما توسع يا حاج شوية، جنبك فاضي!

- يا ابنى أروح فين! أقعد على حجر الناس يعني؟!

كانت رائحة فمه وأسنانه البنية اللون ونظرة التحدي في عينيه التي تحول بياضها إلى اللون الأصفر؛ جعلتني أتمنى أن أقفز من الشباك.. أدركت أن هذا الشاب ما هو إلا لص.. وحظي الأسود قد أوقعني في براثنه.. فوضعت يدي على جيبي كي أطمئن أنه مازال سليمًا، نظر إليَّ

الشاب بغيظ وأخذ يدوس على قدمي في كل اهتزازه للباص.. وأنا منهمك في الحرص والتأهب لما قد يقدم عليه هذا الشاب، بينما أنا في حرصي وتأمين جيبي سمعت صوتًا آخر قويًا:

- ما تفتح يابني آدم.. كام مرة تدوس فيها على رجلي..

كان الشاب مفتول العضلات يلبس نظارة سوداء، ويفوق الشاب الأول في الطول فرد عليه ولكن هذه المرة في خنوع:

- ياعم هو أنا جيت ناحيتك!

فأمسك صاحب النظارة السوداء بمعصمه بقوة وقال له:

- طيب انكشح من هنا مش عايز أشوف وشك..

نظر إليه الشاب وكأنه يعرفه.. ولحظات وكان خارج الباص يسب ويلعن ولكن بعد أن تحرك الباص.. كل ذلك وجميع الركاب وكأنهم خشب مسنده وصمت رهيب يسود المكان..

لم أدرِ هل كان الشاب ذو النظارة السوداء ينظر إليَّ أم لا، ولكنني لاحظت ابتسامة خفية على شفتيه، توجست خيفةً وأدركت أنهما عصابة، فهذا الشاب ذو النظارة السوداء قد تولى المهمة التي فشل فيها الآخر، كانت الحسرة تأكلني من الداخل، لماذا أنا بالذات! أنا ليس معي غير راتبي الضعيف بعد كل هذه السنوات والعمر الذي يتخطى الخمسين بسنوات، فازددت حرصًا وتشبثًا بصدري الذي ينتفض بضربات قلبي، بينما الابتسامة على وجه الشاب تزداد اصفرارًا وكأنه يقول لي:

- ما تحاولش، والله لو لزقتهم على جسمك.. هاخدهم هاخدهم..

أحسست باضطراب في مفاصلي وأن رجلي لا تستطيع أن تحملني، فأخذت أتمتم ببعض آيات من القرآن لعل الله يحفظ راتبي حتى يصل سالمًا إلى يد زوجتي.

نزلت في محطتي وأنا أحمد الله على السلامة، ولكن حانت مني التفاتة، فوجدته خلفي يحث الخطى، فأسرعت في مشيتي ولكنه يمشي ورائي بإصرار عجيب!

ماذا أفعل؟ هل أنادي على المارة لينقذوني؟ أخاف أن يفتعل معي مشاجرة وتكون النهاية علامة من مطواته في وجهي، أو سلب راتبي، وأنا ضعيف الجسم بالنسبة إلى جسمه الضخم..

تنفست الصعداء حين دلفت داخل العمارة التي أسكن بها، بينما الحارس يكلمني، ويخبرني أن فاتورة الكهرباء قد وصلت.. أومأت برأسي ووقفت أمام المصعد، فإذا بالشاب يدخل من باب العمارة! ماهذا الجبروت والإصرار على السرقة! تشجعت في وجود الحارس وهممت أن أوبخه وأطلب منه الخروج فورا من العمارة، ولكن أسكتني صوت الحارس وهو يقول له:

- أهلا يا أحمد بيه
- إزيك يا محروس
- الحمد لله يا بيه، فاتورة الكهربا وصلت.
- ماشي يا محروس، ابقى طلعها وخد الفلوس.

مـر الشـاب بجـواري وقـد ألقـى علـيَّ السـلام وصـعد علـى الـدرج ، ناديت محروس وسألته:

- مين ده يا محروس

- ده الأستاذ أحمد.. ساكن جديد في الدور التاني.. بقاله تلات شهور

- تلات شهور وأنا معرفوش؟

رد عليَّ محروس بشيء من الفلسفة

- هو في حد عارف حد في العمارة دي يا بيه! كل واحد في حاله..

أدركـت أن الغربـة تـأتي مـن داخلنـا نحـن، مـن داخـل الأسـرة الصغيرة، فكان لابد أن أدعو إلى اجتماع عاجل للتعارف بالسكان الجدد والترحيب بهم، ونذيب مابداخلنا من غربة.

في اليوم التالي، وضعت ورقة كبيرة وبخط عريض بجوار الأسانسير (السادة الأفاضل سكان العمارة، الرجاء تشريفنا في الموعد أدناه فوق سطح العمارة للتشاور في أمور العمارة والتعارف)

وفي الموعد المحدد.. لم يحضر أحد!

بقلم / عطا عفيفي